الكتاب المحدثون

عصر الانحطاط

ميزة النثر

كثرة المتطفلين عليه . سقوطه .

لم يكن النثر اوفر حظاً من الشعر فيعدو عنه الاسفاف، وكلاهما رزئ ببلاغته، ومضى عهد فرسانه المجلين . وربما كانت مصيبة النثر افدح، وخطبه اعم، لان عدد المتطفلين عليه اكثر من عدد المتطفلين على الشعر . وكانت النكبة في انشاء المترسلين اشد منها في انشاء المصنفين .

انشاء المترسلين

تعلقهم بالالفاظ . عجزهم عن توليد المعاني . طغت العامية على الفصحى في الدواوين . فساد اللغة . التكلف . السخف .

اصطبغ انشاء المترسلين في العصر العباسي الثالث بالوان الشعر، فغلب عليه الخيال والمجاز، وقامت سجعاته مقام القوافي فلم يكن ينقصه غير الاوزان . ومتى افرغ النثر في قالب الشعر ضاقت أغراضه، وتحددت موضوعاته، فما يصلح الا للاشياء التي يطفو عليها الخيال الشعري كالوصف والرسائل ومقدمات الكتب والمقامات وما اشبه ذلك . واما المباحث العلمية والادبية والتاريخية، فتنبو عنه ، ولا تخضع له الا على كره منها ونفار .

والاسلوب الشعري المنمق صعب القياد، لا يستكين الا لكاتب بليغ، مستطيل على الالفاظ، بارع في المجاز . وكان الكتاب العباسيون فيهم ملكة البلاغة، ولهم حسن البيان، فصاروا بهذا الاسلوب الى اعلى منازله، ونافسوا به النثر الفني المرسل . على ان هذه البلاغة ما لبثت ان تداعت في اواخر العصر الماضي، فاسف نثر المترسلين وجفت صناعتهم، وثقلت الفاظهم، وقبحت محسناتها . ثم وافى هذا العصر، فاحتضرت البلاغة بين يديه . وحاول كتابه ان يجاروا من تقدمهم في الصناعة، واحتذوا على طريقة القاضي الفاضل من التزام التورية والسجع والجناس ؛ لان في صناعة الالفاظ ستراً لعجزهم عن توليد المعاني واختراعها ، فلم يستقم لهم الامر، وجاءت عباراتهم تتمطى متثاقلة، وتتثاءب . وما انقضى صدر الدولة العثمانية ، وسادت التركية في الدواوين، وطغت العامية على الفصحى، حتى لفظت البلاغة نفسها . وصار الكتاب لا يطيقون الافصاح عما في ضمائرهم، واعتاصت عليهم الصناعة، وفسدت اللغة في عباراتهم، واكثروا من الحشو والكلام الفارغ . وتكلفوا السجع على ضعفهم، فجاء

سخيفاً نابياً، متقلقلاً في اماكنه .

واشهر مترسلي هذا العصر من عاشوا في دولة المماليك، وكتبوا لسلاطينها، كالقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وشهاب الدين محمود الحلبي، وشهاب الدين بن فضل الله العُمري .

انشاء المصنفين

اجمل من انشاء المترسلين . اقرب الى الضبع . فساده في عهد العثمانيين .

واما انشاء المصنفين فلم تعمه الصناعة اللفظية كما عمت فن الترسل، فقد لبث طائفة منهم يقصدون الى الاسلوب المرسل فاحسنوا في ذلك . ولكن لم تتفر لهم بلاغة اسلافهم، فجاء انشاؤهم في الجملة على شيء من اللين، ولم يخلص من التعقيد والتطويل . ثم دب الفساد في لغتهم كما دب في لغة المترسلين فكاد يكون النثر عامياً، كما يبدو في قصص بني هلال، وتاريخ ابن إياس[1] وما شاكل ذلك .

---

(١) هو ابن اياس الجركسي الحنبلي من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله بدائع الزهور في وقائع الدهور ، دوّن فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ . (١٥٢١ م) ولغته ضعيفة اقرب الى العامية منها الى الفصحى .

العلوم والاداب

الحركة العلمية الادبية في عهد المماليك محمودة . ضعفها في بني عثمان .

كانت الحركة العلمية في دولة المماليك محمودة لكثرة المدارس عندهم، واقبال العلماء على مصر والشام، وانصرافهم الى التأليف باكناف السلاطين. ولكن مصنفاتهم قل فيها الاستنباط لتصلب الاذهان، فجاءت في معظمها جمعاً وتحشية وشرحاً . فمن الذين اشتغلوا بالنحو ابن مالك الطائي، وله الفيته الشهيرة، وتسهيل الفوائد، والكافية الشافية، ولاميّة الافعال. ومنهم ابن هشام وله قطر الندى وبل الصدى، ومغني اللبيب عن كتب الاعاريب، والإعراب عن قواعد الأعراب. ومنهم ابن آجُرّوم وله الآجُرّومية.

ومن الذين اشتغلوا بتصنيف المعاجم اللغوية ابن منظور صاحب لسان العرب جمع فيه تهذيب الازهري، ومحكم ابن سيده، وصحاح الجوهري، وجمهرة ابن دريد، ونهاية ابن الاثير، وجعله في عشرين مجلداً. ومنهم الفيروزابادي وله القاموس المحيط في اربعة مجلدات . ومنهم السيوطي، وله المُزهر في جزئين يشتمل اولهما على البحث في الفاظ اللغة وفصيحها وضعيفها ورديئها، والمعرب والمولد والحقيقة والمجاز والقلب والابدال وما اشبه ذلك. ويشتمل الثاني على اوزان الكلام، وابنية الافعال ومعرفة التصحيف والتحريف، ومن يحتج بهم من شعراء العرب وغير ذلك .

وكان حظ التاريخ حسناً، والنشاط له عظيماً، فظهرت فيه كتب جليلة يصح الركون اليها . وكان للمغرب يد على فلسفة التاريخ في مقدمة ابن خلدون. فمن الذين اشتهروا في مصنفاتهم التاريخية ابن خَلِّكان، وله وفيات الاعيان في مجلدين، وهو كتاب نفيس، وله ذيول اشهرها فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي. ومنهم صلاح الدين الصفدي وله الوافي في الوفيات، وهو معجم للتراجم في خمسين جزءاً . ومنهم

ابو الفداء وله المختصر في اخبار البشر، تاريخ عام في اربعة اجزاء . ومنهم شمس الدين الذهبي، وله تاريخ الاسلام في اثني عشر مجلداً . ومنهم ابن خلدون وله كتاب العِبَر في ستة مجلدات .

وكذلك الجغرافية، فان اصحابها ما انفكوا يعانون الرحلات في سبيلها، واشهرهم القزويني، وله عجائب المخلوقات في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب . وابن بَطُّوطة الرحالة المشهور وله كتاب تحفة النظّار، ويُعرف برحلة ابن بطوطة . والمقريزي وله خططه التي بيّن فيها اقاليم مصر واحوال سكانها ، واودعها من الاخبار والحوادث التاريخية طائفة حسنة، وهي في مجلدين كبيرين .

ونهض علم الاجتماع في مقدمة ابن خلدون . وكان للعلم الطبيعي حظ حسن في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدَّميري .

واشتغل جماعة من العلماء بوضع الكتب الجامعة لشتى العلوم والاداب، كالنُّوَيري وله كتاب نهاية الارب في فنون الادب، يزيد على ثلاثين مجلداً ، ويبحث في الفلك، وتقويم البلدان، والتاريخ الطبيعي، واللغة والادب . وكشهاب الدين بن فضل الله العمري، وله مسالك الابصار في ممالك الامصار، يتضمن ابحاثاً في التاريخ والجغرافية، والتاريخ الطبيعي . وكالقَلْقَشَنْدي، وله صبح الاعشى في صناعة الانشا، وتقويم البلدان . وكالابشيهي، وله المستطرف في كل فن مستظرف، يشتمل على ادب وسياسة واجتماع وتاريخ وجغرافية، وتاريخ طبيعي ونحو ذلك .

ولما ادال الله العثمانيين، واصبحت مصر والشام في حكمهم، ضعفت فيهما الحركة العلمية، وأقفل معظم المدارس، وانتهبت اوقافها . ثم اخذت التركية تغزو العربية وتزحمها في عقر دارها، فغلبت طمطمانية الاعجام على المصريين، وقل المشتغلون بالعلم لقلة انصاره، وانقطاع وسائله . ولم يكن للتصنيف والمصنفين شأن يذكر لولا تلك الشهب التي كانت تلوح الفينة بعد الاخرى، فتنير سواد هذا الليل الدامس، ثم يتوارى شعاعها في الحجب الكثيفة، فيستبد الظلام . فمن هذه الشهب عبدالقادر البغدادي صاحب خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، شرح فيه شرح شواهد الكافية في النحو،

وضمنه ابحاثاً في التاريخ والادب، وجعله اربعة اجزاء . ومنها الصبّان، وله حاشيته على شرح الاشموني على الفية ابن مالك . ومنها المطران جرمانوس فرحات، وله بحث المطالب في الصرف والنحو، وهو كتاب مفيد حسن التبويب . ومنها عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي، وله معاهد التنصيص شرح فيه شواهد تلخيص المفتاح في علم المعاني والبيان، وترجم لاصحابها، وذكر طرفاً من مختار شعرهم، وشعر غيرهم . ومنها شهاب الدين الخفاجي، وله شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل . ومنها السيد مرتضى الزَبيدي صاحب تاج العروس، معجم كبير في اربعة عشر مجلداً يشرح قاموس الفيروزابادي .

وعرف من المؤرخين المُحِبّي، وله خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر . والمَقّري التِلِمساني، وله نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، في اربعة مجلدات ضخمة . وحاجي خليفة، وله كشف الظنون، معجم لاسماء المصنفات العربية، رتبه على الابجدية، وذكر فيه المصنف وغرض كتابه، وما له من شروح، واصحاب هذه الشروح .

واشتهر من مؤلفي الكتب الجامعة بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول، فيه ادب ورياضيات، وفلسفة وعلوم اسلامية .